خاتمة:

ما الذي يمكن أن يقوله هذا الكتاب بعد هذه الرحلة الشاقة والممتعة في عوالم الشعرية بأقاليمها المتباينة؟ نقول: لقد كشفت هذه المغامرة النقدية على مطاردة النقاد المحترفين والشعراء النقاد المنظرين، لكوكب مجهول هو كوكب الشعرية، وذلك منذ زمن بعيد، زمن الفلسفة الإغريقية، حيث طاردت النزعة الأفلاطونية ومعها الأرسطية لعنة الكلمة الشعرية محاولة إخضاعها إلى قوانين شكلية جامدة، تحت عباءة التخييل أو الشعرية. وجاءت الفلسفة الإسلامية لتضع حداً لتلك المطاردات اللانهائية للكون الشعري، وذلك بإخضاعه إلى قوانين أخرى عرفت بها الشعرية في دفاتر الفارابي وابن سينا وغيرهما.

وقد عمدت الحركة النقدية منذ زمن ابن سلاّم الجمحي حتى يومنا هذا إلى النظر فيما يعرف بالشعرية، حيث ظلت محكومة بفلسفة الهروب إلى الأمام عند الحداثيين، ومحكومة بقيود أو سلاسل عتيقة بالية في كتابات النقاد التقليديين، وقد مثلت نظرية عمود الشعر قانوناً يحكم الحقيقة الشعرية عند التقليديين، وفي مقابل ذلك مثلت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني قانوناً آخر يحكم الحقيقة الشعرية في كتابات النقاد الحداثيين.

وفي العصر الحديث عرفت الشعرية انفتاحاً على ثنائية العقل والذات، وهي ثنائية أثمرت لنا نموذجين نقديين؛ النموذج الأول هو نموذج النقد الاحترافي الألسني بمناهجه العقلانية الصارمة، وأما النموذج الثاني فهو نموذج النظرية الشعرية بوصفها جملة من النقاشات النظرية والخواطر الذاتية والانطباعات الشخصية القابعة في سراديب التلهف عن ماهية الشعر ونشأته ووظيفته، وهو اتجاه عمل الشعراء النقاد المنظرون على بسط النظر فيه.

وإذا كانت ثنائية الداخل والخارج هي ثنائية فلسفية بالأساس، فإن ثنائية العقل والذات هي ثنائية فرعية، ومن لب هذه الثنائية الفلسفية واللسانية تأسست أهرامات هذه المناهج النقدية الاحترافية، وجولة عابرة في تاريخ النقد الأدبي تكشف لنا عن مدى تجذر الصراع بين النقاد المحترفين والشعراء النقاد قديماً وحديثاً، وبقي هذا

الصراع ساري المفعول إلى فترة تأسيس هذه المناهج النقدية الاحترافية، وقد ترتب على ذلك الصراع فجوة كبيرة بين المنهج النقدي ونظرية الأدب، ونعتقد أن هذا الفصل هو الذي أوقع النقد العربي والأروبي في هذه الأزمة النقدية الحادة.

لقد عولجت الحقيقة الشعرية في أطروحات النقاد المحترفين تحت عباءة أخرى هي عباءة الشعرية الألسنية، وقد تجلى ذلك في أطروحات تودروف ورومان جاكبسون وجان كوهين، فقد طاردوا الشعرية واتصفت مطارداتهم تلك بعدم الكفاية النقدية وبالجزئية وبالحياد عن الدائرة الجمالية التي يشغلها فيض النص الأدبي وأهراماته السحرية، وقد جاء الشعراء النقاد الغربيون فأعادوا للحقيقة الشعرية حقها المسلوب منها بفعل سيطرة النزعة العقلانية والاحترافية، وقد اختفى شارل بودلير ورامبوا ومالارميه واليوت تحت عباءة الرمزية والسريالية والتكعيبية، فأعادوا للنص الشعري حلمه المفقود وذلك من خلال طرحهم لمجموعة من المبادئ كالكشف والتجاوز ونبذ المنطق والعادة والنبوءة وعدم الارتباط بالزمان والمكان والرؤيا والتمرد والاختلاف... إلخ.

وقد طارد النقاد العرب المحترفون الحقيقة الشعرية، حيث تأثروا في مطارداتهم تلك بالمد الألسني فكانت مطارداتهم مطاردة ميكانيكية وشكلية ليس إلا...، وقد لعب الشعراء النقاد العرب الحدثيون دوراً أساسياً في انتشال المادة الجمالية، وذلك من خلال مداعبتهم للنص الأدبي مداعبة قائمة في الأساس على تبصر كبير لمجمل لآلئه الجمالية، فكأننا مع هؤلاء الشعراء النقاد نشعر بالتوحد بين الكون الشعري والكون النقدي، فبين هذين البينين تنمحي الفواصل والحدود ونشعر مع أولئك الشعراء أن النص الشعري قد باح لناقده عن أسراره وعن مدلولاته اللانهائية، وكل ذلك وجد صياغته النهائية تحت عباءة نظرية شعرية حداثية.

هذه هي أهم الأفكار والنتائج التي توصلنا إليها من خلال مداعبتنا الحرة في سماء تلك المقولات النقدية والانطباعات الذاتية، التي تختزل لنا رحيق الشعرية في محطاتها النظرية والنقدية، فقد ارتمينا في حجر علاقة مستعصية بين التنظير والنقد، فكان عملنا ماثلاً في أفكار محفوفة بالحجارة حيناً، وبالأشواك حيناً

أخر، وهو شيء افترضته رغبة ملحة في التطفل على أليات المنجز النصي، من خلال التوق إلى أهراماته الجمالية والمعرفية، وما ذلك سوى دأب محكوم عليه بالفشل سلفاً؛ لأن التعامل مع مقولات التنظير الشعري والتقول عليها تقولاً نقدياً دأب من شأنه أن يخضع النص الشعري إلى جملة من المعادلات والأحكام النسبية.

يضاف إلى ذلك أننا نشتغل و بمقصدية مزدوجة على حقل ينتمي إلى العلوم الإنسانية، حيث تبقى نتائج هذا الحقل نسبية، ما دام النص الشعري محكوماً عليه بخطيئة التطور المستمر والتمتع بمناعة كافية، فإن التأسيس لاستراتيجية ذلك التطور، و تلك المناعة يظل من المستحيل بمكان.

ومن اجتهد و أصاب فله أجران ومن اجتهد و لم يصب فله أجر واحد.

obeikandl.com